

القرويين، بن يوسف، مدارس سوس

"جامعات" المغرب القديم

كشف الستار

مكتبتنا الزيدانية التي سرقها الإسبان

عبد السلام بنعبد العالي

«أزمة الفلسفة تكمن في تدريسها والتفكير بها»

قضية ساخنة

يوم استعبد المغاربة الجنس الأبيض



حوار

المهدي بن محمد السعيدي، أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب - جامعة ابن زهر

في هذا الحوار يحدثنا الباحث المتخصص، المهدي السعيدي، عن التاريخ المبكر لنشأة المدارس التعليمية بالمغرب والأدوار المنوطة بها، كالمدارس الخاصة المنعزلة عن سلطة الدولة، ثم المدارس التي أشرف عليها جهاز المخزن، بالإضافة إلى طبيعة المواد التعليمية بها، وذلك منذ دخول الإسلام إلى المغرب، وصولا إلى فترة الحماية وما ترتب عنها.

حاوره غسان الكشوري

«إنشاء المدارس كان أيضا لغرض الحفاظ على وحدة البلاد واستقرارها»

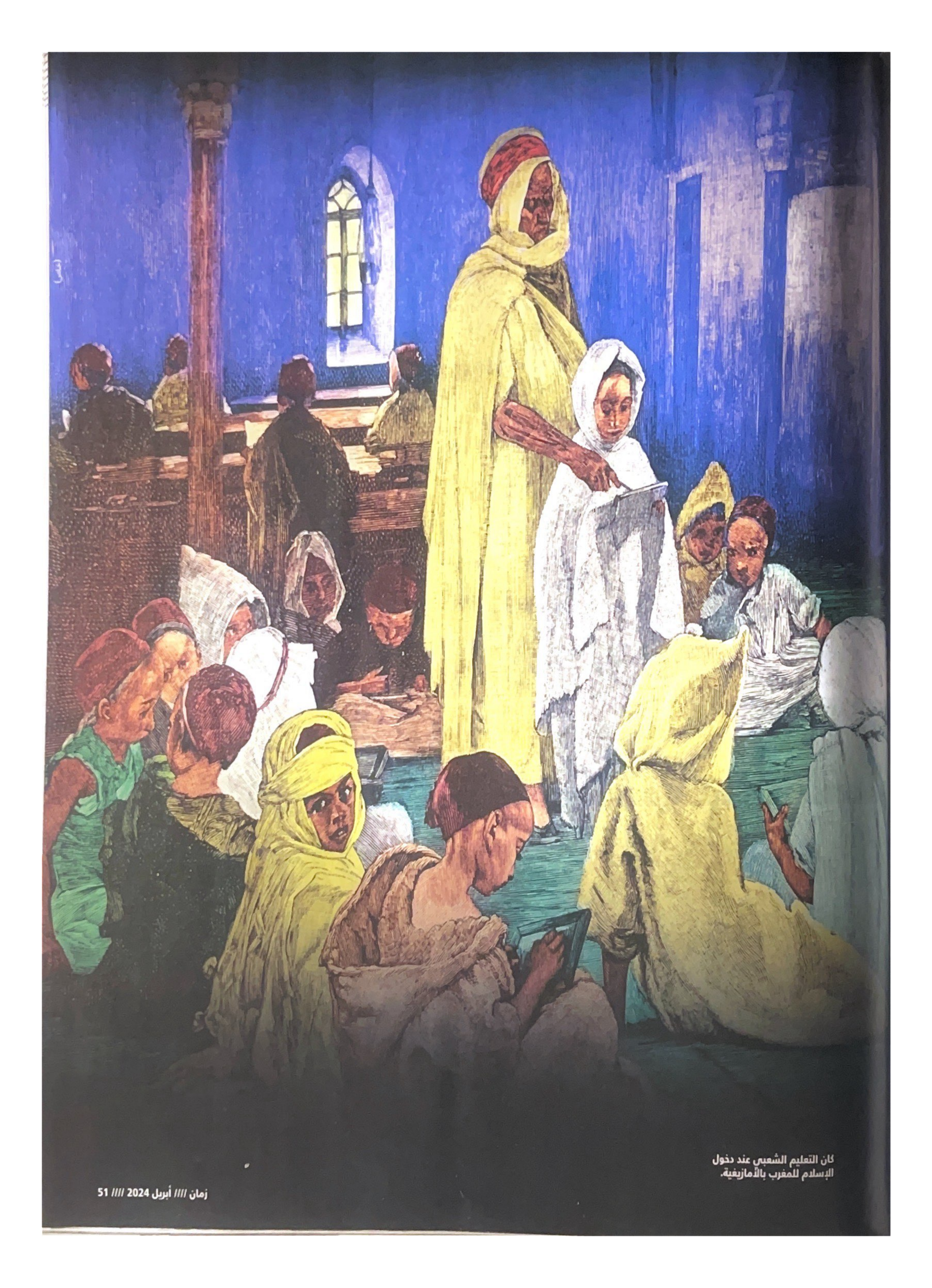
لنبدأ بالتساؤل عن التعليم المبكر بالمغرب: هل بالفعل ظهرت المدارس مع دخول الإسلام وانتشاره بالمغرب، وماذا عن التعليم عند الأمازيغ؟

أشكركم جزيل الشكر على استضافتي في رحاب مجلة "زمان" المغربية المهتمة بنشر المعرفة التاريخية وترويجها، وجعل المهتمين وعموم المثقفين، يفكرون - من خلال ما تنشر من موضوعات مهمة وثرية - في ماضي قطرنا المغربي، وكيفية استلهامه والاستفادة منه في فهم مشكلات الحاضر واستشراف آفاق المستقبل.

لقد كانت المدارس المبكرة في المغرب هي المساجد التي ترافق تأسيسها مع دخول الإسلام إلى البلاد فكانت المساجد دور عبادة، ومراكز تعليم وتدريس، ومؤسسات اجتماعية وفكرية وثقافية، وتذكر المصادر التاريخية ومنها كتاب "البيان المغرب"، لابن عذاري قول الشيخ أبي علي صالح ابن عبد الحليم: «لم يصح عندي أن عقبة رضي الله عنه حضر بنيان شيء من مساجد المغرب، إلا مسجد القيروان ومسجدا بالسوس الأقصى».

ويرجح كثيرون أن المقصود مسجد ماسة الذي غمره البحر وصار تحت رماله، كما أن هناك إشارات أخرى في مصادر تاريخية تدل على تحويل معابد قديمة بعد الإسلام إلى مساجد، مثل مسجد أغمات بحوز مراكش، الذي كان معبدا للنصارى ثم حولت قبلته بعد الإسلام، حسب ما ذكر مؤلف كتاب "دلائل القبلة".

السلطان محمد بن عبد الله.



كان التعليم الشعبي عند دخول الإسلام للمغرب بالأمازيغية.



••• لقد بدأ بناء المساجد في فجر الدعوة الإسلامية بالمغرب، فانطلقت به حركة التعليم الشعبي، التي كانت تستهدف تلقين المسلمين الجدد مبادئ الدين، وتعليمهم الشعائر والعبادات، وأسس الأخلاق والمعاملات، وهو ما نعرفه في عصرنا بالوعظ والإرشاد، كما أن طائفة من المغاربة المسلمين الأوائل اتجهوا إلى التعمق في معرفة الإسلام فتعلموا العربية، وربما رحل بعضهم إلى المشرق للحج وللدراسة بمعاهد الحضرية الكبرى في الحجاز ودمشق. إلى ذلك، فإن بعض الخلفاء الأمويين اهتموا بعد ذلك بإرسال العلماء إلى أقطار المغرب لتعليم الناس، وخاصة الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذي بعث عدة فقهاء زمن ولاية عبد الله بن أبي المهاجر على المغرب، فكان نتيجة ذلك - حسب ما تشير إليه المصادر التاريخية كابن عذاري في "البيان المغرب"، والدباغ في "معالم الإيمان" والمالكي في "رياض النفوس"- إسلام خلق كثير من المغاربة.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن التعليم الشعبي عند دخول الإسلام للمغرب كان بالأمازيغية، إذ كان الغرض نشر الدين أولا، ودعوة الناس بلسانهم، ثم يأتي نشر العربية، باعتبارها لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وهو منهج استمر بعد ذلك مع المذاهب الضالة التي دخلت إلى المغرب كالخوارج والروافض الشيعة، إذ حرصت على استقطاب الناس بمخاطبتهم بلسانهم الأمازيغي، وكانت من نتائج ذلك انتشارها بل تأسيس إمارات لها بالمغرب، كما استعان فقهاء المالكية كذلك باللسان الأمازيغي في عملهم لكبح تلك المذاهب، واستمر

اضطلعت المساجد والرباطات بدور في التعليم.

الشريف الإدريسي.

هذا النهج حتى زمن الموحدين، ثم صارت المواعظ الشفوية في العصور اللاحقة تدون وتكتب لتظهر المؤلفات الأمازيغية بالحرف العربي المعروفة الآن، ويهمنا هنا أن نشير إلى نموذج لهذا النهج، وهو فقيه كان عالما بعقيدة أهل السنة والجماعة والفقه المالكي، وهو سالم بن سلامة الروداني، الذي كان مقيما بسجلماسة حيث تصدى لفرقة منحرفة هي الوهبية يناظر زعماءها ويفحمهم، ويظهر بطلان معتقداتهم، حسبما ذكره ابن الزيات في كتابه "التشوف إلى رجال التصوف".

من خلال كل هذا، نعلم أن التعليم في المغرب صار في خطين متوازيين، التعليم الشعبي الموجه لتفقيه عموم الناس في ضروريات عقيدتهم ودينهم وأخلاقهم، والتعليم المتخصص الذي رام تكوين نخبة من الفقهاء والعلماء، ممن يؤهلون للإمامة والقضاء والفتوى والتدريس وغيرها من الوظائف الدينية والاجتماعية.

فالبداية كانت من المساجد ثم انتقلت للمدارس، لكن كانت هناك مرحلة انتقالية بينهما وهي مرحلة الرباطات، التي كانت في الحقيقة سلف الزاوية الطرقية، فقد حدث بعد ضعف دولة الادارسة، أن ضعفت السلطة المركزية، ووجدت المذاهب والنحل الوافدة مجالا خصبا لنشر أفكارها، وتأسيس دويلاتها، بحجة تحقيق مجتمع الإنصاف والعدالة، لكنها لم تزد البلاد إلا فوضى ودمارا واقتتالا، وهنا ظهرت حركة المرابطين الإصلاحية التي نهض بها تلامذة الفقيه ابن أبي زيد القيرواني صاحب "الرسالة" الفقهية، فقاموا بدعم من أستاذهم وإرشاد، بتأسيس رباطات لمحاصرة نفوذ النحل

الضالة كالخوارج والشيعة بتارودانت والبورغواطيين بتامسنا، وكانت هذه الرباطات مدارس للتكوين العلمي في الفقه المالكي والعقيدة، كما كانت معسكرات للتدريب والتكوين الحربي لمقارعة الخصوم، إضافة إلى وظائفها الاجتماعية في الرعاية وتوفير الحماية والتغذية وغير ذلك، وقد أدت هذه الرباطات مهمتها خاصة قبل زحف المرابطين الصنهاجيين من جنوب المغرب من تلامذة عبد الله بن ياسين الجزولي، وقضائهم التام على المخالفين، وتوحيد المغرب تحت لواء أهل السنة والجماعة، واستمرت هذه الرباطات بعد ذلك في عصر الموحدين وإن غلب عليها طابع الدولة، كما بقيت حتى العصر المريني، بالرغم من انتشار المدارس في ذلك العصر نفسه.

وماذا عن المدارس المبكرة قبل إنشاء القرويين؟

لا شك أن مساجد عدة شيدت بالمغرب قبل القرويين، وشهدت حلقات للتعليم والتربية، خاصة تلك المدعومة من الإمارات الأولى الناشئة بالمغرب منها كإمارة بني صالح بالنكور، وإمارة بني مدرار الخوارج الصفريين بسجلماسة، وإمارة الخوارج ببورغواطة قبل أن تتحول

ظهرت المدارس العتيقة مع المرينيين حين اكتملت ملامح الشخصية المغربية

إلى دين البورغواطية الذي وضعه صالح بن طريف، وهذه البيئة المذهبية التي اتسمت بالجدال العقدي والصراع الحربي كانت في حاجة ماسة لمن يعضدها من أهل المعرفة والعلم والتعليم، وما مجال هؤلاء سوى المساجد يبث منها أهل كل مذهب فكره ويدافع عنه ويحاول إفحام خصومه والنيل منهم، في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ المغرب أواخر العصر الأموي، وأذكر هنا أن الأستاذ المنوني كان يلهج أواخر عمره بمشروع هام جدا -لم يُلتفت إليه للأسف- مفاده أنه وقف في المشرق العربي خاصة باليمن وعمان على وثائق ونصوص مازالت مخطوطة، تضم إشارات هامة إلى حركة علمية تعليمية مبكرة بالمغرب في تلك العصور الأولى، فكان الأستاذ المحقق يدعو الباحثين إلى الاهتمام بهذا المجال وإرسال بعثة علمية لجمع تلك النصوص ودراستها ونشرها.

ما المقصود بالتعليم العتيق: لماذا نقول المدارس العتيقة؟

التعليم العتيق هو التعليم المغربي الأصلي والأصيل قبل العصر الحديث، والذي كانت تحتضنه المساجد والرباطات ثم المدارس، وقد ظهر للوفاء بحاجات المجتمع والدولة والناس والبلاد، وكان أساسه الدين الذي قامت عليه دولة المغرب بعد وصول المسلمين، باعتباره نظاما شاملا للحياة، فكان المطلوب من هذه المؤسسات التعليمية تكوين عامة الناس على مبادئ وأسس الدين، وتخريج النخب التي يحتاجها المجتمع والدولة من سلاطين ووزراء وعلماء فقهاء قضاة ومفتين وموثقين، وإداريين وأطر الجيش وشرطة وأطباء ومهندسين وفلكيين ومحاسبين



ابن الياسمين.

وغيرهم ممن لا تستقيم الدولة بدونهم ولا يلتئم شمل المجتمع المتين بغيابهم.

أما المدارس العتيقة فينبغي أن نعلم أنها ظهرت بالمغرب - كما سبقت الإشارة - في العصر المريني، حينما اكتملت ملامح الشخصية المغربية، فقد طرح المغاربة عنهم فكر المهدي بن تومرت العقدي والفقهي، وعادوا إلى المذهب المالكي، وانكبوا على فروعه، كما صارت الأشعرية مذهبا رسميا للدولة بعد أن دخلت المغرب قبيل عصر المرابطين كما هو معلوم، ولتوطيد هذه المكونات، وإرساء هذه الملامح ظهرت المدارس، لتكون مؤسسات تعمل على وحدة الأسس الحضارية للمغرب وصيانتها والحفاظ عليها، بعد التجارب والخبرات المضنية منذ مرحلة الفراغ بعد الأدارسة ثم عصر الموحدين الذي انتهى بطرح فكر المهدوية وملحقاتها، وقد عضد ذلك ما كان المغاربة يشعرون به من خطر نصارى الشمال، وتأهبهم للقضاء على آخر ملامح الوجود العربي الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية، وهذا يعني أن المدارس أسست بعد اكتمال الرؤية، ووضوح السبيل التي ظهر للمغاربة أنها المسار الأمثل للحفاظ على وجودهم الديني والسياسي والحضاري، كما عزز هذا التوجه وفود علماء كثيرين من الأندلس واستقرارهم بمختلف حواضر المغرب، مما كان له أثر كبير في الفكر والعلم والثقافة، وقوى هذا التوجه كون عدد من سلاطين المرينيين كانوا محبين للعلم يجلسون للدروس، ويؤثثون الخزانات ويشجعون العلماء ويؤسسون المدارس بالحواضر الكبرى كفاس ومراكش وغيرها، مثل مدرسة الصفارين ومدرسة السبعيين والمدرسة البوعنانية.. بفاس، ومدرسة القاضي بمكناس، ومدرسة الجامع الكبير بتازة وغيرها.

أما عن تسمية هذه المدارس بالعتيقة، فهو أمر حديث يعود إلى سنوات الثمانينات، ولم يحسم الأمر إلا بترسيم الاسم عند إصدار ظهير إصلاح التعليم الذي سمي عتيقا. أما هذه المؤسسات، فلم تكن مقرونة بصفة معينة قبل ذلك، لأنها كانت تمثل النظام التعليمي الوحيد بالمغرب قبل الاستعمار، يتخرج منها الفقيه والمؤرخ واللغوي والطبيب والفلكي والأمير والوزير والمهندس •••

اعتبرت المدارس الفاسية فروعا أو ملحقات لجامع القرويين.





تميز جامع القرويين بأنه كان أهم جوامع العاصمة الإدريسية.

••• والتاجر... ثم لما وقع الاحتلال، جاء المستعمر بنظامه التعليمي، فاحتيج إلى صفة لهذه المدارس فسميت حينا بالمدارس الدينية أو التقليدية، وبعد الاستقلال، صارت تنعت بالأصيلة، لكن هذه الصفة أخذتها منها معاهد التعليم الأصيل التي أحدثت لتكون بديلا لها بعد أن رفض كثير من الفقهاء إصلاحها وتطوير مضامينها التعليمية التي تراجعت كثيرا عما كانت عليه في عهود الازدهار العلمي بالمغرب قديما.

كان المطلوب من المؤسسات التعليمية تكوين عامة الناس على مبادئ وأسس الدين

ولذلك، لم يبق لهذه المدارس سوى صفة العتيقة، وإن وقع نقاش مستفيض في ندوات ولقاءات حول هذا الوصف الذي عدّه بعض المهتمين تنقيصا لهذه المدارس، فظنوا نعتها بالعتاقة دالا على تخلفها عن الركب، غير أن الصفة صارت متداولة بعد الترسيم، فرفع الخلاف وسميت هذه المؤسسات بالمدارس العتيقة.

ما الشيء الذي جعل القرويين صرحا علميا متميزا في زمنة؟ وما طبيعة التعليم داخله؟

الجدير بالذكر أن جامع القرويين أسس في عصر الأدارسة، غير أن التقاليد العلمية الجامعية لم تظهر به إلا بعد ذلك بوقت طويل أي في زمن المرينيين كما ذكر الأستاذ العلامة محمد المنوني، حينما اكتملت ملامح الشخصية المغربية في العقيدة والفقه والسلوك والإمامة. وفي هذا الإبان، ظهرت المدارس كما عرفت بعد ذلك. ولاشك أن المصادر التاريخية خاصة المتأخرة حينما كانت تتحدث عن جامع القرويين ومنجزه العلمي لم تكن تقصد الجامع المعروف وحده، بل إن الحركة التعليمية العظيمة بفاس -كما أشار الأستاذ محمد المنوني في كتابه "ورقات عن حضارة المرينيين"- توزعت بين أربعة مراكز هي جامع القرويين نفسه، ثم ما يمكن اعتباره فروعا له أو ملحقات به، وهي المدارس الفاسية، ثم جوامع المدينة ومساجدها، التي كانت تحتضن دروسا في مثل المستويات الإعدادية والثانوية، ثم الحلقات الخاصة التي كانت تعقد في منازل ودور العلماء، وغالبا ما كانت متخصصة في بعض العلوم التي لا تتداول كثيرا. ومهما يكن، فإن من أبرز مميزات جامع القرويين أنه كان أهم جوامع العاصمة الإدريسية، ثم المرينية، وقد أتاح له ذلك توفر دعم الأوقاف التي صارت بفضل أريحية أهل المدينة بل المغاربة جميعا، مستندا لتنشيط التعليم بالعطاء المالي والتشجيع المادي، فتوفر العلماء المرموقون المدرسون لمختلف الفنون سواء من المغاربة أو الوافدين من الأندلس أو من حواضر الشمال الإفريقي خاصة القيروان، أو حتى من المشرق وبلاد السودان الغربي، كما تمكن الطلبة من متابعة الدراسة بفضل ذلك الدعم ذاته، بل صار الطلبة الأفاقيون يجدون السكن والتغذية والكسوة والكتب مما يمكنهم من الاعتكاف على التحصيل، والحقيقة أن القرويين ضمت منذ العصر المريني أسمى مستويات التعليم بالمغرب، لأن المدينة كانت ملتقى الفكر ومنهل العلم وموئل التأليف والبحث، ولذلك اشتهرت منذ ذلك العصر القولة التي كثيرا ما صار يرددها أحد العلماء ينصح بها تلاميذه قائلا: «ها أنتم حصّلتم العلم، فاذهبوا إلى فاس لتحصّلوا العبارة».

أما فيما يخص طبيعة التعليم في القرويين، فلم تكن على وتيرة واحدة طيلة قرون، بل كانت تسمو إلى أعلى مستوى عند توفر الأمن والاستقرار، والتشجيع والدعم من الأوقاف والسلطات المركزية، فتدرس به كل الفنون الرائجة في غيره من معاهد البلاد الإسلامية من علوم دينية فقهية وعقدية وما يدور حولها ومن علوم تطبيقية كالطب والفلك والرياضيات وعلم الحيل والهندسة... إلى غيرها، بينما كانت تتوقف بل تكاد تضمحل إبان الفتن المدلهمة التي كثيرا ما كانت المدينة ضحية لها في بعض المراحل الصعبة من تاريخ المغرب.

ماذا أيضا عن جامعة ابن يوسف بمراكش وخصوصيتها وعن أهميتها التاريخية؟

جامع ابن يوسف حلقة أخرى مميزة من حلقات التعليم العالي المغربي، وقد تأسس أصله في العصر المرابطي مع خزانته، ثم أسست المدرسة بجانبه مع تجديده في العصر المريني، فصار مركزا عظيما للتكوين والتدريس بمن اجتمع فيه من علماء المغرب والأندلس والغرب الإسلامي عموما، وما توفر له من دعم مادي

وأوقاف زمن المرابطين والموحدين كذلك، مع كون مراكش عاصمة للإمبراطورية المغربية العظيمة الممتدة من جنوب مجريط (مدريد) شمالا حتى نهر السنغال جنوبا ومن المحيط الأطلسي غربا حتى برقة شرقا، وهذه الدولة الممتدة على هذا المجال الواسع كانت في حاجة إلى أطر وموظفين وقادة ووزراء وسلاطين وإلى نخب من العلماء في مختلف المجالات لتواكب حاجاتها الضخمة، وما كان ليفي بذلك سوى مؤسسات تعليمية ذات مستوى مرموق، تزودها المدارس المبثوثة في مختلف جهات المغرب بالطلبة النابهين الأذكياء الذي لا يمضي زمن طويل حتى يظهر تفوقهم ونبوغهم في العالم الإسلامي، ولعل في أمثال القاضي عياض وأبي عمران الفاسي والشريف الإدريسي وابن الياسمين وأبي موسى الجزولي وابن البناء العددي وابن أجروم وابن الحاج الفاسي وأحمد زروق نماذج لهذا النبوغ الذي سطر الأستاذ عبد الله كنون رحمه الله في كتابه "ذكريات مشاهير رجالات المغرب" سير عدد كبير منهم.

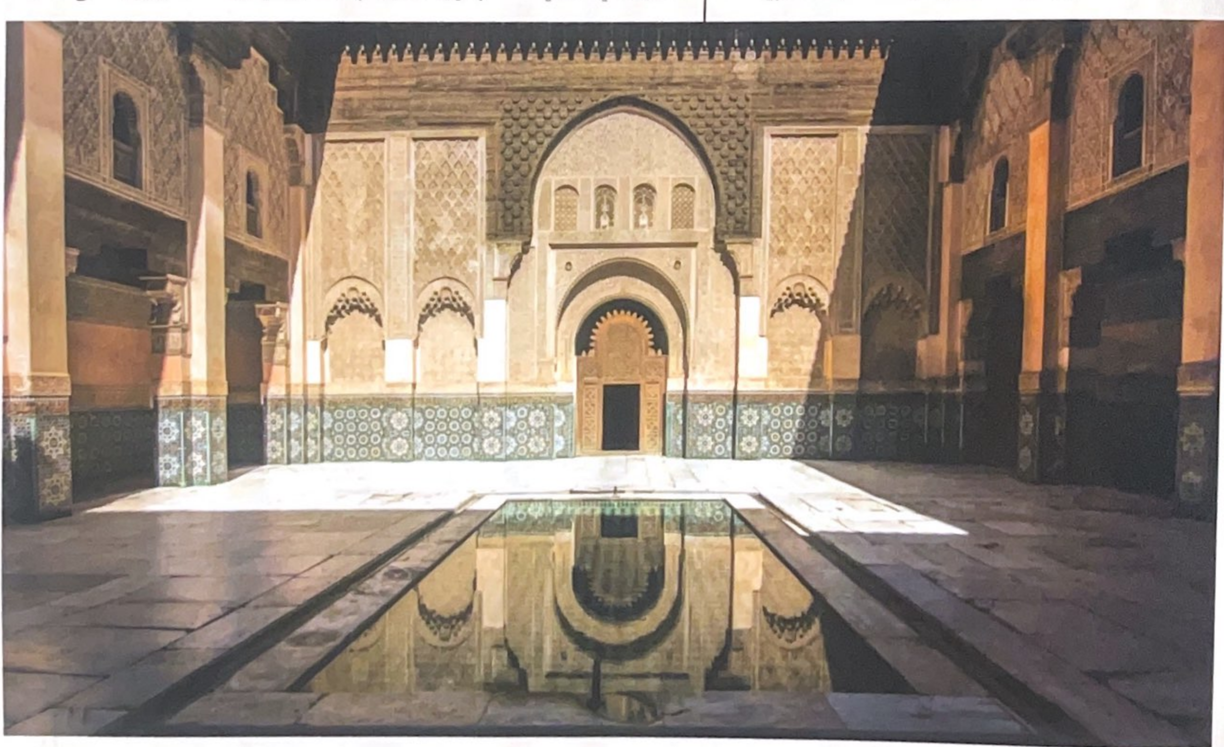

أبي موسى الجزولي.

هل إنشاء المدارس كان استراتيجية لدى بعض الدول؛ مثلما حصل مع المرينيين الذين نلاحظ أنهم اهتموا كثيرا بتشييد العديد من المدارس في مختلف المدن المغربية؟

يبدو لي أن نشأة المدارس لم تكن فقط مسألة سياسية مرتبطة بالعصر المريني، بل كانت حاجة ملحة للحفاظ على الاستقرار والوحدة بالمغرب، بإنهاء الصراع المذهبي والعقدي، ومنع النحل والمذاهب المنحرفة من التسلل إلى البلاد مرة أخرى كما وقع بعد تحلل الدولة الإدريسية، والحيلولة كذلك دون عودة المهدوية وشطحاتها المذهبية والسياسية كما وقع في عصر الموحدين، حتى صارت تلك العقيدة حجرة عثرة أمام استمرار الدولة، واضطر بعض سلاطينها إلى إعلان التبرأ منها، لقد مثل العصر المريني عودة المالكية إلى مجال التعليم والفقه والعقيدة والسياسة، بعد سيطرة النزعة الظاهرية في عصر الموحدين.

ومن يراجع مقررات التعليم في المدارس، يجد أنها تركز على اللغة العربية، باعتبارها لغة الدين، ومعرفتها بل التعمق فيها يضمن الاستقلال عن الوصاية الخارجية، كالتي مارسها الخوارج والشيعة، حينما وفدوا على المغرب وعملوا على نشر مذاهبهم بحجة أنهم وفدوا من المشرق بالمذهب الصحيح الذي على المغاربة قبوله، لكونه التفسير الصائب للدين ولتدبير شؤون الحياة به، على اعتبار أن واضعي المذهب مصدقون في تفسيرهم للعقيدة والفقه والإمامة لكونهم مهروا في فهم الوحي وفهم أصوله ومراميه لنشأتهم بالمشرق مهد العربية، لقد مكنت معرفة اللغة العربية المغاربة من الاتصال المباشر بمصادر التشريع، وبآراء وأقوال العلماء المجتهدين، كالإمام مالك وأبي الحسن الأشعري وأبي القاسم الجنيد، واختيار مذاهبهم لمناسبتها لحاجات المغاربة الفقهية والعقدية والسلوكية، انطلاقا مما كانوا يعيشونه من مشكلات مرتبطة بموقع البلد وطبيعة أهله وعقليتهم وأعرافهم. ومن هذا المنطلق، كانت معرفة العربية وسيلة مهمة لمعرفة الدين وتدبير الحياة به بالاستمداد مباشرة من الأصول.

أما بالنسبة للسلاطين المرينيين، فمن المعلوم أنهم عاشوا في مرحلة صعبة كانت التهديدات خلالها تخترق المشرق بغزو المغول بغداد وسيطرة الصليبيين على دمياط •••


يعتبر جامع ابن يوسف حلقة أخرى مميزة من حلقات التعليم العالي المغربي.

••• بمصر، بينما كانت تحيط بالمغرب تهديدات من كل الجهات، خاصة في الشمال حيث كانت النصرانية تتأهب للانقضاض على آخر معاقل الإسلام بالأندلس. لذلك، كان عملهم مركزا على تقوية الداخل وتمتين الوحدة، عبر ترسيخ أسسها من خلال عدة وسائل منها التعليم ومؤسساته.

بعيدا عن العواصم، مراكش وفاس.. ماذا عن جنوب المغرب وبالتحديد منطقة سوس، كيف كانت فيها المدارس التعليمية؟

كان جنوب المغرب يسير مع الحواضر الكبرى ويتأثر بها كما يؤثر فيها، وفي مجال التعليم شهدت منطقة سوس تأسيس مسجد ماسة على يد عقبة بن نافع الفهري، ثم كان ذلك منطلق حركة تعليمية نجهل الآن ملامحها المبكرة، لكنها انطلقت من المساجد ثم نهضت بالرباطات، قبل أن تنتقل للمدارس العلمية، فكانت حركة تعليمية نشيطة وقد تعرضت لذلك بتفصيل في كتابي "المدارس العتيقة وإشعاعها الأدبي والعلمي بالمغرب، المدرسة الإلغية بسوس نموذجا"، الذي نشرته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية سنة 1427/ 2006 وقد عقدت فيه فصلا خاصة بتطور التعليم الإسلامي بالمنطقة منذ بداياته الأولى حتى العصر الحديث، وما يميز هذه المدارس أنها قامت بجهود القبائل دون تدخل السلطة المركزية، فهي التي كانت تبنيها بدعوة من

انطلقت الحركة التعليمية بالمغرب من المساجد ثم نهضت بالرباطات.



ابن البناء

العلماء والفقهاء، وتنفق عليها وتدعم الأساتذة والطلبة بالزكاة والأعشار والعطايا، مما مكنهم من الاستمرار في رسالتهم العلمية حتى العصر الحديث، فكانت سوس أكثر المناطق البدوية المغربية احتفاء بالعلم العربي الإسلامي ومدارسه عبر القرون.

هل كان للمدارس التعليمية بالمغرب برنامج موحد؛ أو لنقل هل كانت الدولة (السلطان / المخزن) تحدد طبيعة ما يجب تدريسه من مواد معينة؟

لم تكن السلطة المركزية أو المخزن يتدخل في وضع المقررات، أو تحديد المواد، بل كان ذلك متروكا للعلماء، وحتى بعض السلاطين الذين حاولوا التدخل في ذلك، فشلوا في تحقيق أهدافهم، فالمهدي بن تومرت حاول وخلفاءه استئصال الشغف بالمذهب المالكي وفروعه من نفوس المغاربة لكنه فشل، كما أن السلطان المولى محمد بن عبد الله حاول إدخال بعض المواد في نظام القرويين، بحث العلماء على العناية بالأصول الحديثية، بل إنه منع تدريس المختصر الخليلي، لكنه لم ينجح فلم يكد يتوفى ويتولى خلفه المولى سليمان حتى عادت دراسة "المختصر" جذعة كما كانت بل أكثر.

لقد تبلور في المغرب اتفاق بل إجماع بين العلماء، على برنامج تعليمي مرن، أساسه اللغة العربية، التي يمكن إتقانها من الترقي في فهم الفقه وما حوله من علوم الدين، مع ما يخدم هذه العلوم من علوم تطبيقية

كالحساب والفلك والطب وغير ذلك، غير أن الشروح أو التعليقات المعتمدة لم تكن دائما هي نفسها، فالمرونة التي ذكرناها تركت المجال واسعا للعلماء للاختيار والاصطفاء، مع الحفاظ على المتن الأصلي المعتمد، كالأجرومية ولامية الأفعال والألفية في النحو مثلا ومتن ابن عاشر ومنظومة ابن عاصم ومختصر الشيخ خليل في الفقه، وقس على ذلك، وكان علماء بعض المناطق يفضلون شروح أو حواشي وتعليقات علماء محليين كما كان الحال في سوس مثلا حيث كانت تدرس مثلا الأجرومية بشرح محمد بن مبارك الرسموكي ومنظومة الجمل لمحمد السلوي المجرادي بشرح علي بن أحمد الرسموكي ولامية الأفعال بشرح يبورك بن عبد الله السملالي.



عبد الله كنون.

اشتهرت فاس بكونها ملتقى الفكر ومنهل العلم وموئل التأليف والبحث

ما الذي تغير في المدارس بالمغرب مع مجيء الاستعمار؟ ولماذا بدأ الفصل بين تعليم المواد الدينية والمواد الأخرى؟

طبعا كان الاستعمار صدمة كبيرة وخطيرة للمغاربة، فقد هز كيانهم العقدي والفكري، وتدخل في تسيير المجتمع وتدبير السياسة وإدارة الدين والتعليم والتكوين، وكان هدفه بحكم إيمانه بضرورة البقاء بالبلاد، هو مواجهة الأفكار والهيات والمؤسسات التي أسهمت في تأخير أو عرقلت تدخله في المغرب، فبدأ بمؤسسة المخزن، وبسرعة، قام بعرقلة التعليم بإغلاق مؤسساته واغتيال كثير من العلماء، والتضييق على الطلبة والخريجين، وتجميد الأوقاف، ومنع صرفها لدعم المدارس الدينية، لقد كان التعليم المغربي مصدر خطر للاستعمار، لذلك عمل على تفاديه بتفكيكه أو على الأقل بتجميده وعدم الثقة بالعلماء، والفقهاء. وبينما كانت المدارس العتيقة جامدة متوقفة تقريبا، قام الاستعمار بإنشاء تعليم مواز عصري كما سمّاه، الغرض منه تكوين أجيال من المغاربة لخدمة الاستعمار ومعمريه وشركاته وإداراته، تعليم يركز على الثقافة الفرنسية والتكوين المهني لتخريج أفواج من العملة والحرفيين المهرة لا يتجاوز أعلاهم تكوينا مستوى الثانوي، بينما أهمل اللغة العربية والدين الإسلامي والثقافة المحلية إغفالا تامًا، إلا بما يخدم أهدافه.

لقد طبقت فرنسا في المغرب ما كانت تؤمن به وهو مبدأ العلمانية أي فصل الدين عن الحياة، وقدمت رؤية ترى الدين مناقضا للحياة، والتدين عنوانا للجمود والتخلف، حتى يظن المغاربة أن الأخذ بالنظم الحديثة في الإدارة والتعليم والمهن الضرورية كالطب والإدارة مثلا لا يتحقق بوجود الدين ودراسته وتدريسه، وقد كان هذا الفصل في صالح استمرار الاستعمار والتمكين له، وهذا ما فطنت له الحركة الوطنية التي نهضت للإفشال مشروعه ذاك، مستغلة التناقضات التي أفرزتها السياسة الفرنسية بالمغرب، حينما فشلت في كسب ثقة الشبيبة المغربية التي صارت معادية للفكر الفرنسي، معبرة عن نفورها من نموذجها القيمي، خاصة تلك المتخرجة من مؤسسات جديدة ظهرت بالحواضر الكبرى على وجه الخصوص، وهي المدارس الحرة التي أسسها الوطنيون لتكون بديلا عن جمود المدارس العتيقة بسبب التضييق عليها، وعن المدارس العصرية الفرنسية المعادية للهوية الوطنية ومكوناتها. ■

ركزت الحماية، في سياستها التعليمية، على الثقافة الفرنسية.

